

تاريخ القبول: 2019/07/23

تاريخ الإرسال: 2019/07/13

مكانة الطقوس الجنائزية في سياق الحداد النفسي
في منطقة تمنراست

**The role of funeral rites in the process of grief,
in the region of Tamanrasset**

هاجر بن عيسى

benaissa@gmail.com

رضوان زقار

zeggarred@gmail.com

المركز الجامعي بتمنراست

الملخص:

يقوم الحاد بصورة تلقائية بمجموعة من الطقوس جراء فقدان شخص عزيز، هذه الأخيرة (طقوس الموت) تختلف من منطقة إلى أخرى في المجتمع الجزائري، رغم تشابهها في إطارها العام. عكس ما يمكن أن يظهر للملاحظة البسيطة، تكتسي هذه الطقوس الجنائزية مكانة هامة في سياق الحداد النفسي من خلال مساعدتها للحاد على تجاوز محنته، وقد تمنحه جلدا (resilience) سيمكنه من تخطي نكبته.

من خلال استخدام تقنيات الملاحظة والمقابلة في دراسة الطقوس الجنائزية في منطقة تمنراست، نحاول أن نظهر أن ما يمارسه الحادون من طقوس تلي تجربة الموت، ما هو في حقيقة الأمر سوى سياقات نفسية اجتماعية ينتجها المجتمع على شكل ثقافة، من أجل مساعدة الأفراد على مواجهة وتجاوز العواقب المصاحبة لتجربة الموت. يعمل طقس التعزية والمواساة مثلا، كعامل حماية ضد انهيار الفرد، وكنوع من العلاج التقليدي التلقائي الساذج، الذي يتضمن تقديم الدعم والسند النفسي والاجتماعي يساعد الحاد على التفرغ الانفعالي الضروري في مثل هذه الظروف.

الكلمات المفتاحية: الصدمة، الحداد النفسي، الطقوس الجنائزية.

abstract:

The loss of a loved person motivate the bereaved to practice a set of funeral rites which differ from a region to another, in Algerien society, although there are some semblances in general. These

rituals play an important role in the psychological process of grief by helping the bereaved to overcome the crisis of loss.

Through utilization of both observation and interview in the study of funeral rites in the region de Tamanrasset, we try to show that rites of mourning are behaviors produced by both individual and society as a culture, to face symptoms and manifestations which accompany the experience of death. We can see in the rituals of consolation for instance, as a simple and a spontaneous traditional therapy contains psychological and social support which may allow to the bereaved an emotional discharge needed in such conditions.

Key words: traumatism, grief, funeral rites.

مدخل

يشير مفهوم الطقوس الجنائزية إلى بعض السلوكيات التي يقوم بها الفرد والجماعة لما يتعرضان لفقدان شخص عزيز، إنها نشاطات مختلفة يقوم بها الحاد ويجتهد في احترامها ما استطاع إلى ذلك سبيلا. تأخذ هذه الطقوس صورة عادات وأعراف وتقاليد اجتماعية تمارس بصورة تلقائية. حيث يهيا الأفراد منذ بداية نضجهم حسب سنهم وجنسهم وديانتهم على كيفية التصرف أمام الموت، وعند فقدان شخص عزيز. إن تجنب ارتداء لباس الزينة¹، والتوجه إلى بيت الفقيد لتقديم المواساة والتعزية، وتغسيل الميت وتكفينه، ونقله والصلاة عليه ودفنه، وقراءة القرآن عليه، كلها نشاطات لا يُستغن عنها في المجتمعات الإسلامية.

تنتشر الطقوس الجنائزية في المجتمعات البشرية المختلفة، وتختلف أشكالها من منطقة لأخرى، في التفاصيل، ولكنها تبقى ثابتة في أغلب الثقافات البشرية في طابعها العام. تمارس الطقوس الجنائزية في الجزائر في مختلف مناطق الوطن، بما فيها منطقة الجنوب الكبير. وتتقارب هذه الطقوس فيما بينها بتقارب الخلفية العقائدية الإسلامية للأفراد، كما هو الحال بالنسبة للصلاة على الجنازة، بينما تأخذ طابعا خاصا بالثقافة التي تميز المنطقة التي يحدث الفقدان فيها، كتجنب زيارة المقابر بالنسبة للنساء، في منطقة تمنراست. ورغم أن هذه الطقوس تظهر في صورة سلوكيات أو حركات آلية وعفوية عند تعرض الأفراد للفقدان، فإنه لا يمكن عزلها عن الثقافة الاجتماعية السائدة في المنطقة

التي تمارس فيها. إنها رموز هادفة لها غاية وقصد، حتى وإن كان من يقومون بها غير واعين بدورها أو مدركين لمنفعتها.

يعتبر الموت أحد التجارب التي تفرض على الانسان أن ينفصل عن أعزائه، فينجر عن ذلك جملة من المشاعر النفسية المؤلمة، يصطلح عليها بعمل الحداد، تتدخل في مساعدة الحاد على تجاوز تجربة فقدان، بما تتضمنه من سياقات نفسية وميكانيزمات دفاعية. وإلى جانب السياقات النفسية التي يوظفها الحاد بصورة تلقائية، والتي تعمل لصالح الانفصال وتجاوز الأزمة، فإن الطقوس الجنائزية التي يقوم بها الأفراد عند الموت، تساهم في دفع الحاد إلى مواجهة الواقع، ولو مؤقتا، من خلال الممارسات المختلفة التي يضطلع بها الأفراد حسب

1. في بعض مناطق المشرق العربي وأوريا يرتدي الحاد اللباس الأسود، بينما يرتدي بعض الحادون لباسا أبيض في مناطق من الهند، لكن في الجزائر عموما، وفي منطقة تمنراست يستمر الحاد في لباسه المعتاد، مع ابتعاده عن استعمال الزينة أو التزين. سنهم وجنسهم، ودرجة قربتهم بالفقيد. إن مواجهة الواقع بالنسبة للحاد يشكل خطوة نحو الأمام في التغلب على سياق التجنب الذي قد يعمل على استقرار حالة من التشاؤم والسلبية في حياة الحاد.

ويرتبط الحداد اجتماعيا بمجموعة من الممارسات، والطقوس: كارتداء الزي الأسود، والامتناع عن الزينة، والتعزية والمواساة والقيام بزيارات في أوقات محددة إلى قبر الفقيد¹. تسمح هذه الطقوس لأصحابها بتفريغ جزء من الشحنات العاطفية والتخلص من مشاعر الذنب التي تصاحب كل عمل حداد، وتقوي الروابط بين أفراد المجموعة الواحدة، من خلال المشاركة الوجدانية وتقاسم نفس المشاعر، مما يعمل على تعزيز الشعور بالانتماء. إن التواتر الكبير للطقوس الجنائزية في مختلف الثقافات الانسانية وحاجة الناس إليها كان من الدوافع التي جعلتنا نوجه انتباهنا نحو هذه الظاهرة. حيث نحاول في هذه الورقة أن نرصد الطقوس الجنائزية التي يقوم بها الأفراد عند فقدانهم لشخص عزيز في منطقة تمنراست، وكذا الأدوار التي يمكن أن تؤديها في مساعدة الحاد على الثبات في وجه

التجارب المؤلمة والمرعبة، ومغطية بذلك بعض الحاجيات النفسية والجسدية والاجتماعية التي يمكن أن تغطيها هذه الطقوس في مثل هذا الظرف العصيب.

الطقوس الجنائزية

تمارس مجموعة من الطقوس الجنائزية في مدينة تمنراست إثر فقدان شخص عزيز، وتبدأ ممارستها مباشرة بعد الموت. يعتبر إعلان الوفاة أو التصريح بالوفاة أول طقس يمارسه الحاد، حيث يجتهد في إبلاغ خبير الوفاة إلى كل الأقارب

1. تتمتع النساء عن زيارة المقابر في منطقة تمنراست، وحتى في مناطق صحراوية أخرى (أدرار، عين صالح). بينما تشير ملاحظات أجريناها في مقبرة العالية بالجزائر العاصمة (زقار، 2015) أن يوما الجمعة والأعياد هي أيام مفضلة للعديد من الأسر لزيارة موتاهم، ويقوم بهذا الرجال والنساء على حد سواء. وفي نفس هذا السياق، يطلعنا الباحث نابتي (2015) عن زيارات خاصة بالنساء لمقبرة سيدي بوجمعة يوم الجمعة بمنطقة عين الصفراء بالنعامة. يعكس هذا الخصوصيات المرتبطة بالطقوس الجنائزية، والتي تختلف من منطقة لأخرى.

ومعارف المتوفى. بعدها يشرع في طقس التعزية والمواساة، ثم التعزيمية، أو/و البكاء. بعد هذا يتم تغسيل الجنازة وتكفينها ثم نقلها إلى المسجد أو المصلى¹ للصلاة عليها قبل دفنها. بعد قبر الجنازة بثلاثة أيام تمارس الجماعة العائلية طقس توزيع الحنة وخروج العود، هذا الأخير الذي يكون بمثابة إعلان نهاية الحزن وعودة الحياة اليومية إلى مجراها المعتادة. إن الأهمية الممنوحة اجتماعيا لهذه الطقوس يجعلنا نتساءل عن دورها في مساعدة الفرد على النمو السوي، ومدى قوة حمايتها للحاد من خلال مساعدته في التغلب على الانهيار النرجسي الذي لحق به.

من أجل دحض سياق الرفض الذي يحتمل أن يستقر في مثل هذه الحالات، تقوم الجماعة العائلية بطقس إعلان الوفاة، بالطرق المختلفة (الهاتف، المسجد)، وباستخدام صيغ مختلفة، بحيث يتسنى لمن فقد شخص عزيز أن يفهم نبأ الوفاة في سياق الكلام دون أن يتلفظ بكلمة الموت، كأن يقال: فلان كان مريض برى، فلان ود الفرقة، فلان تعرفو هذاك هو...، وكأنه نوع من الترميز والتهيئة النفسية لاستقبال خبر الوفاة.

تعتبر هذه الصيغ رمزيا عن الموت، ويساعد هذا التعبير الرمزي على تحريك القوى العقلية للعمل في هذا الإتجاه، كما أن تجنب تسمية الموت بإسمه هو نوع من الرمزية التي تعمل على امتصاص الصدمة والسماح لسياق الرفض التلقائي من الانبساط على أمل تلاشيه لاحقا (فلان برى ارتاح من ألم المرض الذي كان يعاني منه، وبالتالي يجدر بنا أن نرتاح لراحته). فلان زاد عليه الحال " تحريض لهومات الموت دون القطع بها، وهذا من أجل تسهيل نفوذه إلى النفس البشرية.

1. توجد بطحاء واحدة تسمى المصلى في مدينة تمنراست (هي في الأصل واد واسع ومهياً)، يُصلى فيها على الأغلبية الساحقة للأموات في المدينة، وهذا المكان هو نفسه الذي تصلى فيه صلاة الأعياد الدينية.

يسمح طقس التعزية، والعبارات التي تصاحبه (خلى البراكة، عظم الله أجزكم) برفع معنويات الحاد المنهارة. خلى البراكة، يعني مثلثة لأهل الميت من أنهم امتداد له، وزيادة في الاستمرارية لمشاريعه. عظم الله أجزكم، وتعني أنكم فقدتم شخصا عزيزا، ولكن الله يجازيكم بصبركم، ويجعل الصبر في ميزان حسناتكم وميزان ميتكم. تسمح عبارة (إنا لله وإنا إليه راجعون)، بتحريك القوى الفكرية المشلولة من جديد، لتتذكر الانسان بأن الموت هو مصيرنا جميعا، وأن الأمر مرتبط بالوقت. يبعد هذا الدهشة عن الانسان، وقد يدفعه للتفكير في نهايته ووفاته. كما يعزز هذا علاقة الفرد بمعتقداته الدينية التي تلعب دورا هاما في تمكينه من إيجاد التصورات الملائمة التي تساعده على تجاوز الأزمة.

يعمل طقس التعزيمة، كنوع من العلاج الايهامي للحاد (Placebo)، ويعطي الحاد الثقة في النفس من التغلب على مصيبة الموت. بتقديم قليل من الماء المرقى من طرف الطالب أو الراقي إثر خبر الوفاة لجميع الأفراد الموجودين في بيت العزاء. فهو قد يوحي لهم بإعطائهم قوة إلهية تساعدهم في التغلب على قوى الموت. كما قد يعتقد الحادون أنهم قد تلقوا علاجاً فعالاً، يستند إلى كلمات الله، الذي خلق الموت والحياة، ومن هنا فهم يطلبون عونهُ وسندهُ.

يعمل طقس البكاء على مساعدة الأفراد على التفريغ الانفعالي. لا يخفى على أحد ما لأهمية هذا التفريغ من فائدة على الصعيد النفسي. يساهم البكاء الجماعي في بيت الميت

بمساعدة (نائحة أو نادبة) وترديد كلمات وعبارات معينة (ذكر مناقب الفقيد) في مساعدة الحاد على التعبير عن انفعالاته، والشعور بالارتياح العاطفي. يساعد هذا على انفصال الليبيدو عن موضوع التعلق العاطفي من خلال ربط التصورات بالعواطف. البكاء مع أهل الميت هو شكل من المشاركة الوجدانية لمعاناتهم وتقاسم الألم معهم، ويشعرهم بالتعاطف (Gauthier, 2012, 104)، حيث يقلل هذا من عمق مأساتهم ويبرز قوة قوى الحياة مقارنة بالموت، ويزيد من تماسك الروابط الاجتماعية.

يرمز طقس **التغسيل والتكفين** إلى أهمية إبعاد الدنس والنجاسة عن الميت، وتطهيره. حيث يقلل هذا من مشاعر الذنب لدى الحاد، ويشعره بأنه قام بواجبه اتجاه فقیده. ويحرص الأهل عادة على أن يرمى الماء الذي غسل به الميت بعيدا عن الأحياء، كمحاولة منهم لإبعاد روح الميت عن حياتهم اليومية، وحتى لا تعود في صورة أشباح تطاردهم، وقد يستخدم ماء تغسيل الميت في سقي الأشجار مثلا، كمحاولة لتحويل هذا الماء الخطير¹ إلى قوى حياتية خيرة (الظل، اللون الأخضر، الأشجار والثمار).

يختلف **طقس حمل الجنازة** نسبيا بين المناطق المدنية والريفية، وعادة يحمل الميت في السيارة من البيت أو المستشفى إلى المصلى، ويحمل على أكتاف الرجال من المصلى بعد الصلاة عليه إلى القبر في المدن. يقف السائرون والمركبات يفسحون الطريق للموكب الجنائزي، الذي يردد عبارات التكبير: الله أكبر، لا إله إلا الله. يعبر هذا عن مواجهة أمر استثنائي، والإجلال أمام هيبة الموت، وإنكاره. اتباع الجنازة يعطي انطعا للحاد بأنه قد ودع فقیده إلى مثواه الأخير. بينما تشيع النساء الجنازة أحيانا بالنظر، من خلال تتبع نقلها بأنظارهن على طول طريق المقبرة، دون المشاركة في الموكب الجنائزي مباشرة.

قبل **طقس دفن الجنازة** يصلى عليها، وتعطى أهمية خاصة **لطقس الصلاة**، إنه يكتسي مكانة اجتماعية خارج إطار الجماعة العائلية، على عكس الطقوس الأخرى. يعلن عن صلاة الجنازة في المساجد، لذلك تحضر جموع كثيرة، وينظر لكثرتها كعلامة على مكانة الميت أو عائلته، أو/وصلاحه. تقلل هذه الحركات الإصلاحية من مشاعر الذنب

والعدوانية لدى الحاد، وتيسر توديع الميت إلى مثواه الأخير (القبر)، والذي يبقى كمعلم، يستقبل

1. قد يستخدم هذا الماء من طرف بعض المشعوذين أحيانا في السحر وإلحاق الأذى بالآخرين.

زيارات الأحياء من حين لآخر. أثناء صلاة الجنازة يعيد الإمام (كرمز للجماعة) بناء منظومة القيم التي تنهار عند تعرض الانسان لصدمة الموت بفعل بشري، حيث تحافظ الصلاة على سلامة الأنا الأعلى والأنا المثالي وتمتينهما. كما تعمل الخطب التأبينية التي تقام أحيانا من ترك أثر طيب في نفوس مودعي الفقيد.

يسمح **طقس الدفن** بقبر الميت، وإبعاد جثته عن الأنظار، مع إبقاء قبره مخلدا لذكرى وجوده يوما ما. يوضع فوق قبر الميت سعة نخل خضراء، يفترض أن بموتها (يئوسها) يكون الميت قد تحلل، وتُحول في ذهن الحاد إلى ذكرى مجردة، بعدما كان صورة ملموسة على الأرض. ويختلف قبر المرأة عن قبر الرجل، حيث توضع حجارة ثالثة لقبر المرأة، بدلا عن حجارتين في قبر الرجل. يسمح الدفن الذي يرمز له بالقبر، بزيارة الفقيد والدعاء له في المناسبات الدينية، والوطنية كما هو الحال بالنسبة لمقابر الشهداء. وتساعد الزيارات المتكررة لقبر الميت في التخلص التدريجي من الألم النفسي المتعلق بالفقدان، وذلك من خلال التفرغ التدريجي للعواطف والانفعالات جراء استحضر صورة الميت والذكريات المرتبطة به.

كما يمكن أن تؤدي زيارة المقبرة وظائف أخرى كثيرة يفوق التعرض لها حدود هذا المقال. يذكر نابتي (2015) أن زيارة المقبرة كطقس اجتماعي أو ديني يمكن أن تتمخض عنه العديد من المنافع على الزائر، وقد تأخذ عدة أشكال وصور: نفسية، إجتماعية، علائقية واقتصادية، وقد لا ينتبه إليها الزائر بصورة دقيقة، ولكنه عموما يشعر بحالة من الراحة النفسية التي تجعله يتردد على زيارة المقبرة بصورة مستمرة.

بعد ثلاثة أيام من الوفاة¹ يقوم أهل الميت ب**طقس توزيع الحنة**، على الحاضرين كنوع من الدفاع الهوسي ضد مشاعر الحزن التي تسيطر

1. يستثنى من هذا موتى يوم الجمعة والأعياد الذين يخرج عودهم في اليوم الذي دفنوا فيه، ويسمى أيضا بيوم الفضيلة.

عليهم في هذه الفترة، وهم بذلك يرمزون إلى أن مرحلة الصدمة قد تلاشت ولم يبق منها سوى فورات خفيفة يمكن التغلب عليها شيئا فشيئا. ونشير إلى أن الدليل التشخيصي والإحصائي الخامس (DSM5) يأخذ أيضا في الحسبان مدة ثلاثة أيام كبداية لتمييز الحالات السوية من غير السوية. ويرتبط بطقس الحنة طقس آخر، يسمى بطقس خروج العود، الذي يمارس بعد مرور ثلاثة أيام من الوفاة. فيقال اليوم خرج العود نتاع الميت لمن توفي غير يوم الجمعة وأيام الفضيلة، ومعناه خروج الحزن من البيت، وبعد ذلك تقسم الحنة والتمر والحليب، ويسمح اجتماعيا بممارسة نشاطات أخرى سارة (عرس مثلا).

طقس الصدقة، ويكون في اليوم الأول أو الثاني أو الأربعاء، وهو مصاحب لطقس قراءة القرآن، مما يوحي للحاد بأنه قد قام بواجبه تجاه ميتته من خلال التصدق عليه وجمع شمل العائلة الصغيرة والكبيرة بهذه المناسبة (الوفاة). وإلى جانب مواقف المساندة المتبادلة بين أعضاء الأسرة، فإن الصدقة تخفف من مشاعر الذنب التي يعانيتها الحاد في مثل هذه الظروف.

لا تمثل الطقوس الجنائزية المذكورة أعلاه سوى عناصر بارزة في الممارسات الاجتماعية للحاد، والواقع أن هناك طقوس أخرى صغيرة¹ تدخل ضمن كل طقس كبير مما ذكر. لكي نستطيع أن نفهم البعد النفسي والاجتماعي الذي تلعبه هذه الطقوس في سياق الحداد النفسي، يجب أن نتساءل أولا عن الواقع النفسي والاجتماعي الذي يتمخض عن حادث الفقدان (الحزن، فقدان الثقة في الذات والمحيط، اضطراب الشهية والنوم...)، وبالتالي، يكون فحوى فرضيتنا أن الطقوس الجنائزية إنما هي استراتيجيات نفسية واجتماعية تمنح الحاد جلدا للتكيف مع الوضع الجديد للفقدان. وتزوده، كحاملة لثقافة، بوسائل وإمكانيات لاحتواء التجربة الصدمية، وعامل حماية ضد استقرار أعراض الحداد. تعمل المواسة مثلا، كحاوي يساعد الحاد على ____

1. كطقس عدم التقبيل عند زيارة الحاد من أجل تقديم المواسة والتعزية له.

احتواء المشاعر العنيفة وتعزز شعوره بالانتماء، فيبتعد عن العزلة والأفكار الانتحارية. وقد أشارت دراسات كثيرة (Jong-Sun Lee, 2014) إلى قدرة الانسان على المحافظة على توازنه النفسي إثر تعرضه للصدمات النفسية، بما في ذلك تعرضه للفقدان. لكن كثير منها لم تبين العوامل التي تختفي وراء هذه القدرة في مواجهة الوضعيات الصدمية. وحسب معرفتنا، لا توجد دراسات في مجتمعنا أشارت إلى ممارسة الحاد للطقوس الجنائزية، وقدرته على الاحتفاظ بحالة من الاستقرار النفسي الذي يوحى بأهمية هذه الأخيرة في مساعدة الحاد على مواجهة الأزمة. في هذا السياق يؤكد لاقاش، مثلا، أن الطقوس الجنائزية تسمح بانفصال جدي بين الأحياء والأموات، وتحد في نفس الوقت من مشاعر الذنب، وكذلك مدة الحداد (Bacqué et Hanus, 2005, 24).

نستخدم في هذا المقال مفهوم الجلد (résilience) للإشارة إلى قدرة الانسان على النمو السوي، رغم تعرضه لظروف استثنائية وفوق العادة، لما له من دلالة لغوية في تحقيق المعنى. فقد جاء في لسان العرب لابن منظور، أن الجَلْد هو القوة والصبر والصلابة. كما جاء في معجم المعاني الجامع، أن من معاني الجَلْد الصبر، القوة والاستماتة والقدرة على تحمل المكاره والمصائب والشدائد، والثبات. حيث تشير بعض الدراسات (Bourgeois, 2003) إلى أن نسبة 20% من حالات الحداد النفسي سوف تتحول إلى حداد معقد أو حداد صدمي، فلا يميل تطورها نحو الشفاء التلقائي، وإنما تتجه نحو الإزمان، وتعقيدات وظيفية، واجتماعية، ونفسية وجسدية. بينما تميل النسبة المتبقية، وهي الأغلب (80%) نحو التطور السليم، والتعافي التلقائي بمرور الزمن، فما السر في ذلك ياترى؟ ثمة عوامل عدة قد تساعد الحاد على التغلب على تبعات الصدمة والحداد، ويمكن أن يكون بعضها مرتبطا بممارسة الطقوس الجنائزية، بما تتضمنه من احتواء للحاد وإسناده نفسيا واجتماعيا.

ترى دو تيشي (De Techeey, 2012) أن القدرة على عقلنة العواطف الحادة المرتبطة بالألم وإمكانية ترميز العنف والعدوانية اللتان يشعر بهما الحاد في ظروف الفقدان لها قيمة تمييزية بين من يتميزون بالجلد (résilience) ممن لا يتميزون به من الأفراد. وهذا ما يجعلنا نفكر في مكانة الطقوس الجنائزية في مساعدة الحاد على النشاط الفكري، بعيدا

شيئا ما، عن تهديد التصورات المرتبطة بالصدمة، وعواطفها المرعبة. يساعد طقس إعلان الوفاة مثلا، على التقبل الفكري للفقدان، بينما يساعد طقس البكاء على التفرغ الانفعالي، في حين يساعد طقس الصدقة على إرسان مشاعر الذنب، ومن هنا مشاعر العنف والعدوانية. كما قد يساعد طقس "عشا" الميت، على مواجهة القهم والتغلب على فقدان الشهية، الذي يمكن أن يستمر بمناسبة تجربة الفقدان لدى البعض.

الفقدان والحداد النفسي

يمثل فقدان الأحبة أحد التجارب الأكثر فظاعة في حياة الانسان، حيث يعيش على إثر ذلك حالة من الألم والمعاناة، قد تعرض توازنه النفسي للخطر، بحكم عمقها وطابعها الاستثنائي. عقب فقدان مباشرة يعبئ الحاد موارده النفسية وسياقاته الدفاعية من أجل التغلب على العمليات الهدمية. ويعتبر الحداد من الظواهر النفسية والاجتماعية التي لا مفر لأي إنسان من اختبارها في مرحلة من مراحل حياته، وفي الغالب، يعيش أكثر من تجربة حداد في مسار حياته، غير أن هذه التجارب تختلف في عمقها وحدتها تبعا لعدة متغيرات (درجة القرابة، نوعية الاستثمار، السن، الجنس). وأمام المعاناة والألم الذي يميز الفقدان، فإن الأفراد لا يتخذون نفس المسلك للخروج من الأزمة التي تغمرهم. فهناك من يفلح في تجاوز مرحله بسلام، فيتجه نحو السواء، ومنهم من يجد صعوبة في تجاوز أحد مرحله، مما يجعل مسار الحداد يتعرقل.

الحداد النفسي هو نشاط داخلي، يتم فيه سحب التوظيف الليبيدي من موضوع التعلق العاطفي الذي لم يصبح له وجود على أرض الواقع، ويكون هذا من خلال صرف كبير للطاقة النفسية، تجعل الأنا ممتصا، ومنهكا، حيث تستنزف كل موارده في العمليات النفسية الهادفة إلى فصل الفرد عن فقده. وتتميز الأوقات الأولى لعمل الحداد بحالة الصدمة (choc) تمس الفرد بكامله: جسمه، وحياته النفسية، ونشاطه وحياته العلائقية، حيث تتمركز انشغالاته على الفقدان، ولا شيء يصبح يستدعي الاهتمام. فتضطرب وتُكفَّ وظائف النوم، والتغذية، والحياة الجنسية، وتستمر هذه الحالة حتى الوعي بالفقدان وتقبل الواقع والألم الشديد (Hanus, 2002). تقبل الواقع هو الرضى بما حدث، نتيجة الوعي بعدم القدرة على التحكم فيه، وعدم إمكانية إبعاده أو الإفلاة منه. يقتضي ما سبق

مستوى عال من سلامة الإدراك، الذي يمكن أن يتوفر أكثر عندما يكون الأمن النفسي مستتباً.

يرى **بيجون** (Bégoïn, 2002) أن الحياة النفسية للحاد تبقى متوقفة على نوعية المواضيع الداخلية، والعلاقات النفسية الموجودة بين هذه المواضيع، وبين الذات بواسطة الأنا، ولذلك فإن النمو النفسي والتماهي يتم من خلال العلاقة النفسية الداخلية بين المواضيع الداخلية، كما تم استدخالها في بداية الحياة. ونظراً للألم الكبير الذي يقاسيه الحاد عند قيامه بعمل الحداد، فإن درجة معينة من الدفاعات الهوسية يمكن أن يكون جزءاً من النمو الطبيعي، لأنها قد تكون في بعض الأحيان ضرورية، للتخفيف الجزئي أو المؤقت من حدة الاكتئاب. وعندما تتعاضد مشاعر الذنب والاكتئاب الأولي فإنهما قد يؤديان حتى إلى توقيف النمو، لأن النمو النفسي مرتبط في حقيقة الأمر بالحداد والتماهي، وتحويل التماهيات النرجسية إلى تماهيات اجتيافية. عندما تكون الموارد النفسية متوفرة نتيجة سلامة وطيبة المواضيع الداخلية، يستطيع الحاد أن يثق في نفسه من جديد نتيجة ثقته في هذه المواضيع التي تأتي لنجدته في وقت الشدة، فتُظهر له أن العالم لا يزال طبيبا ما دامت المواضيع الداخلية طيبة.

يرتبط إنجاز عمل الحداد بالزمن، وبالفروق الفردية والعوامل الداخلية والخارجية، لذلك يختلف الأفراد في المدة التي يتجاوزون فيها حدادهم، بمعنى أن ما ينجزه فرد في مدة شهرين قد ينجزه آخر في مدة سنة أو أكثر. ولكن لما لا نتدخل لإيقاف السياقات المرضية متزعين بهذه الحجة، فكأننا نسمح لهذه السياقات بأن تستفحل وتتقادم. لذلك تتبنى الأوساط العلمية في ميدان الحداد مدة شهرين كفترة كافية لإنجاز الحداد (DSM5, APA, 2013)، حسب الدليل التشخيصي والإحصائي للأمراض العقلية. تعتبر هذه المدة قصيرة جداً في إطار تناول التحليلي، الذي يرى أن فترة الحداد قد لا تنتهي إلا بالموت بالنسبة لبعض الأشخاص، حتى ولو أننا نرى المجتمعات المختلفة دائماً تحاول أن تضع فترة محددة لإنهاء الحداد.

يمكن أن يكون فقدان العاطفي بمثابة صدمة قوية، تؤدي إلى انخفاض طعم الحياة، فيصبح الفرد هشا، ومعرضاً للمرض ومختلف الإصابات، بما فيها الموت. فكل فقدان

لشخص عزيز هو معاناة قُصة، ومؤلمة. وما يميز الحداد المرضي، لا يكمن في نوعية الأعراض بالدرجة الأولى، وإنما في استمرارها، أو ميلها نحو الإزمان، ذلك أن عدم تلاشيها وعدم تحرر الحاد منها، أو عجزه عن توجيه استثماراته نحو مواضيع أخرى، هو الذي يعطي الحداد صبغة صدمية تحوله إلى مرض، فالحداد المرضي يتميز باستمرار كل أو بعض الأعراض المرتبطة به كالحصر والكثابة والألم واليأس والعجز، ومشاعر الذنب، والعدوانية وفقدان الطاقة، والشعور بالوحدة، والتهيج والإنهاك والبكاء، وفقدان الوزن، واضطراب الشهية والنوم. كما أن التعرض للفقدان، يفقد الحاد الأمن القاعدي، فتتغير علاقته بالعالم، وتصبح هشة، وقد يتسبب في نشوء مشاكل بين الزوجين، أو الطلاق، وأعراض سيكاترية وسيكوسوماتية، وإفراط في تعاطي الكحول، وصعوبات عاطفية، أو حالات اكتئابية، أو هستيريا، أو مخاوف.

على الصعيد العاطفي، يعاني الحاد اكتئاباً، ومشاعر حزن، وضيق، وتشاؤم وبكاء، وكف شديد، مشيراً إلى تقيد عمليات الربط، وإنهاك القوى النفسية. تصبح حياة الحاد فارغة وعديمة المعنى، يعيش فيها يأس وقنوط وفقدان الرغبة في كل شيء، والميل للوحدة. يرتبط الاكتئاب بمشاعر الذنب التي يمكن أن تتحول إلى سلوكيات عدوانية نحو الآخرين أو الذات، هدفها هو تلقي العقاب قصد التخفيف منها. كما يسيطر الحصر، ومشاعر خوف وتوتر، وأزمات عصبية، والخوف من الجنون، والموت، والشعور بعدم القدرة على الحياة دون وجود الفقيد، وانشغالات ومخاوف من ضوائق مالية كان يتكفل بها الفقيد (Parkes, 2003).

على الصعيد السلوكي، يظهر التهيج في التوتر، وعدم القدرة على الارتياح، والحركة المفرطة، والعدوانية أحياناً، والبحث الحثيث عن الفقيد، وعدم الانسجام بين السلوكيات. كما يشعر الحاد بالإرهاق، وانحطاط عام في النشاط، والتعب بعد بذل مجهود قليل، وتباطؤ في الكلام وطول فترات كمون. إلى جانب نوبات بكاء كلما تذكر الحاد فقیده، وقد يكون البكاء غير بارز، فتظهر عيون الحاد مُغرورقة بالدموع. وقد يميل البعض للانتحار، بالنظر إلى الاستشارات المفرطة المرتبطة بالتجربة الصدمية. يهدف الفعل الانتحاري كسلوك إلى تهدئة الفيض النزوي، ويمكن اعتباره كمحاولة لحل الصدمة،

ويشير إلى إفلاس وسائل التصريف المعتادة في حل الصراعات النفسية، ويظهر هذا العمل في ظروف الأزمة كمحاولة للتخفيف من التوترات الداخلية التي كان المفحوص فريسة لها أثناء المشهد الصدمي (Duchet, 2007).

بينما تظهر الأعراض الجسدية في اضطراب النوم، وما يصاحبه من انطباعات فجائية، وأحلام مزعجة، فيعجز الحاد عن الاستفادة النفسية والفيزيولوجية من نومه. كما يقل الوزن وتضطرب الشهية لدى البعض. إضافة إلى فقدان الطاقة حيث يشعر الحاد أن ذاته ممتصة جراء الألم النفسي، والانهاك الجسدي. يرتبط فقدان الطاقة باستعمالها في تحقيق الانفصال عن الفقد، وقد يتعلق الأمر بانخفاض مستوى الدافعية الناجمة عن الإحساس بالفراغ، واللامعنى. يحس آخرون بآلام جسدية: الظهر، الرأس، الرقبة، أو تشنجات عضلية، وغثيان وقيء، والإحساس بضيق البلعوم، ومرارة طعم الفم. كما قد يُشعر باضطرابات في النظر وإحساس بفراغ المعدة، وتنفس منقطع، وغياب القوة العضلية، وظهور الشيب أو تساقط الشعر، والارتعاش (Zech, 2006). كما يعاني الحاد على الصعيد المعرفي من تباطؤ واضطراب التفكير، حيث يظهر التدهور الفكري في عدة درجات، كضعف التركيز، والخطأ، ونقص الوضوح والانسجام في الحديث، وفقر أو فقدان الذاكرة وفقدان القدرة على الانتباه.

المنهج وأدوات الدراسة

تبيننا المنهج الوصفي التحليلي من أجل رصد الملاحظات الميدانية التي يمكن معابنتها إبان تعرض الفرد لفقدان شخص عزيز. وقد عززنا هذا الموقف بتقنيتا الملاحظة والمقابلة. الهدف من استعمال الملاحظة هو رصد السلوكيات التي تظهر مباشرة بعد الموت وفقدان شخص عزيز، أما تقنية المقابلة فكانت تهدف إلى الحصول على معلومات من طرف الحاد حول تصوراتته بشأن الطقوس الجنائزية وما يمكن أن تحمله من معاني يكون لها أثر إيجابي في مساعدته في الخروج من تجربته الأليمة.

بالنسبة لتقنية الملاحظة، انطلقنا من سؤال عام يسمح بمعاينة الواقع الجنائزي، وهو كما يلي: ما هي الملاحظات التي يمكن رصدها إثر تعرض عائلة في منطقة تمرناست لفقدان أحد أفرادها؟ باستخدام تقنية الملاحظة وزيارة بعض العائلات (حوالي 10 أسر منذ بداية

التفكير في الموضوع) فقد تم رصد الملاحظات التالية: طقس إعلان الوفاة، طقس التعزية، طقس التعزيمية، طقس البكاء والنواح، طقس التغسيل والتكفين، طقس حمل الجنازة، طقس الصلاة، طقس الدفن، طقس توزيع الحنة، وخروج العود.

تعتبر الملاحظات السابقة عن عناصر بارزة و أساسية في سياق الحداد الاجتماعي، وقد تسمح الملاحظات العلمية الدقيقة بالانتباه إلى طقوس جزئية دقيقة تدخل في إطار كل طقس كبير من التي أشرنا إليها أعلاه. لتحاشي الدخول في تفاصيل قد يصعب تحليلها والانتهاء إلى خلاصات بشأن كل واحدة منها، فقد اكتفينا بطرح أسئلة على بعض من يعيشون حالة حداد(اختبروا فقدان) لنرى أهمية ممارسة هذه الطقوس بالنسبة إليهم ومدى مساعدة هذه الطقوس لهم في تجاوز أزمة الحداد.

بالنسبة لتقنية المقابلة، فقد انطلقنا من سؤال عام، وهو كما يلي، ما هو دور الطقوس الجنائزية في مساعدة الحاد على الخروج من أزمته والاستعفاء من أعراض الحداد النفسي؟ وفيما يلي بعض الأسئلة من دليل المقابلة مرتبطة بالمحاور البارزة التي أشرنا إليها سابقا في شبكة الملاحظة.

تقنية المقابلة:

لقد تضمن دليل المقابلة مجموعة من الأسئلة التي كانت في مجملها متمحورة حول أهمية ومكانة الطقوس الجنائزية في عملية الحداد النفسي، ومن بين الأسئلة التي طرحت نذكر ما يلي: إلى أي مدى اتحس بلي إعلان الوفاة وحضور الأقارب والمعارف ساعدك باش تتقبل عقليا وفاة الفقيد؟؛ واش كان شعورك لما جاو الناس يعزوكم؟ هل ساعدك هذا باش تريح خير ؟؛ هل تحس بلي زيارة الأقارب والجيران في الأيام الأولى عاونك باش تخرج من العزلة انتاعك؟؛ هل بكيك على الميت نتاعك؟ هل فعلت ذلك بما يكفي؟ شحال اتحس بلي ريحت كي بكيك على الفقيد ؟؛ واش تفكر فلي يشربوا التعزينة؟ هل شربتها ؟ كيفاش كان شعورك ؟؛ واش حسيت كي غسلوا الميت او كفنوه؟؛ كيفاش كان الموكب الجنائزي؟؛ واش كان شعورك كي دفنت المرحوم انتاعك؟ واش تحس كي تشوف قبرو؟؛ واش رايك في توزيع الحنة في الجنازة؟ هل درتوها؟ واش كان شعورك كي درتها؟؛ واش رايك في لي يختمو القرآن في الجنازة؟ هل فعلتوا ذلك، واش حسيت؟؛ هل تصدقتو على

الميت انتاعكم؟ علاش في رايك؟ واش حسيت؟؛ واش كان شعورك كي عرفت بخروج العود؟ كيفاش حسيت تبدلت حياتك؟؛ هل تحس أن الطقوس الجنائزية كان عندها دور في مساعدتك على تجاوز أزمة الحداد؟

النتائج:

يمر سياق الحداد النفسي بمراحل تهدف في مجملها إلى مساعدة الحاد على التكيف مع الوضعية الجديدة للفقْدان. ويُساير هذا النشاط النفسي الداخلي بمجموعة من الأنشطة الاجتماعية (طقوس جنائزية) تكون في خدمة الحياة النفسية والاجتماعية للفرد والجماعة معا.

يساعد طقس الاعلان عن الوفاة الحاد على التقبل المعرفي للتجربة الفجأة، ويشير التقبل المعرفي إلى أن الحاد استطاع أن يدرك أن الفقْدان حادث غير عادي، وأن عجزه في مواجهته ذريع، وما عليه إلا تقبله لأنه يفوق طاقته. كما تشير القدرة على التمييز بين السلوكات التي نستطيع أن نتحكم فيها والتي نعجز عن مراقبتها إلى القدرة على الإدراك السليم للواقع، حتى في الظروف الحرجة. لما يستطيع الفرد أن يحافظ على هذا المستوى الرفيع من الإدراك، نتيجة تحكمه في الانفعال، فهذا مؤشر على متانة البناء النفسي. تقول إحدى المبحوثات: " ما ارتحت كي سمعت الخبر، إلا كي جاو الناس،... قعدت فيا الخلعة... (بكاء)".، وقالت أخرى: "كي لحقت لدار العزا وشفت الناس ملمدة، ثم بديت شويا شويا انحس بلي صح مشات، الله غالب. وقالت أخرى: مدام جاو الناس قبلت بلي توفاة. زعما صح ماتت". تشير العبارات السابقة إلى أن إعلان الوفاة وقدم الناس كان له دور في مساعدة الحاد على الوعي بحقيقة الموت.

يقود التقبل المعرفي غالبا إلى التقبل الانفعالي، أي تقبل التغيير الذي يُحدثه فينا إدخال فكرة جديدة إلى منظومتنا المعرفية. ولذلك نجد أن الإنسان يتخذ في كثير من الأحيان مسارا معاكسا: حتى يتجنب التغيير على مستوى هويته، يفضل ألا يعترف بالواقع منذ البداية. لما يكون هناك تقبل على المستوى المعرفي والانفعالي، فإن ذلك يعني أن الفرد لا يَحْسُ بالتهديد اتجاه المحيط الخارجي، ومن هنا فإن ثقته في نفسه مرتفعة، وإدراكه للواقع سليم.

يظهر طقس التعزية مهما بالنسبة للحالات، فهو يساعد على التفرغ الانفعالي والتعاطف مع الحالة، حيث تقول إحداهن: "حسبت بلي الناس متضامنين معنا، وكل واحد بدا يحكي مشاكلو، تلقى بلي كاين اللي أسوأ منك. قالو لمرتو، كاين اللي ما خلى حتى شيء"، معنويا يساندوك ويخفوا عليك. ساعدوني او كانوا يحكو لي النكت باش ينحو عليا الاكتئاب. وتضيف أخرى: نساوني شويا الألم والحزن، خير بياسر، خطر علا بالي كي يمشو الناس يرجع لي هذا الشئ كامل. تمثل التعزية الناس راهم واقفين معنا ومسانديننا. يعبر هذا على مكانة طقس التعزية في سياق الحداد النفسي للحاد وكسند في صالح النمو السوي. كما تعمل التعزية على كسر حالة التجمد في العلاقات الإنسانية والاجتماعية، فهي تسمح للحاد بأن يمكث في بيته، وفي المقابل يأتي أفراد المجتمع لزيارته ومواساته. وقد تنشط التعزية العلاقات الإنسانية وتيرة الحياة الاجتماعية من جديد عند البعض.

ظهر التفرغ الانفعالي جليا من خلال **طقس البكاء**، حيث عبر الحادون جليا عن ارتياحهم بعد البكاء. تقول إحداهن: " في هذيك الدقيقة ما بكيت، واللحظة اللي جات ماما او كان ولدو الصغير راقد او ناض يبكي ثم بديت نبكي، توفاة خالتي من قبل بصح ما عشتوش (الألم) هكاك، كنت صغيرة، او ضرك فهمت واش معناتها تقدي شخص. ريحت كي بكيت بصح ما زال خاصني شويا، الحمد لله. بكيت مع الناس وتقجرت فيا البكيا. والبكاء ساعدني زين". بينما تقول أخرى: " في الأول جاتني صدمة، رجعت الحر في خوتي، اللي يهدر معايا انظير فيه، قبل مانروح لدار العزا، بصح في دار العزا بكيت، وكل مرة نزيد نبكي. إيه ريحت كي بكيت بصح يبقى الألم. تنفست خير من الخطرة الاولى". كما يبين هذا أيضا أهمية الجماعة في مساعدة الحاد على التفرغ الانفعالي. يسمح طقس البكاء بتفرغ الانفعالات ويساعد على تقوية التقبل (بك بكيت عليه). إن وجود جو من الحزن الجماعي يساعد الحاد وبقية من تعقيدات الحداد والاكتئاب والانتحار. وفي الأدب العربي قول الخنساء في رثاء أخيها صخر:

ولو لا كثرة الباكين حولي / على إخوانهم لقتلت نفسي.

رغم عدم اقتناع كل الحالات بطقس **التعزية**، إلا أنهم رأين أنه مفيد ولو نسبيا: تقول إحدى المستجوبات: "يحققوا راحة نفسية، انا اشريتها، او ريحتي شويا". وتقول أخرى:

"عايدة قرآن، مليحة، شربوها لينا، هوما يقولو لك زعما تيقن، بصح ما ني عارفة، كي عطاوها ليا شربتها". وتضيف أخرى: "بلاك مليحة تنقص شويا الألم". في كل الحالات هناك نوع من الإيحاء بقبول الوفاة وتحضير الذات بهدف مرونة أكبر و الاستعداد للوقوف من جديد.

يكتسي طقس **تغسيل الجنازة** أهمية كبيرة، حيث يعبر عن بدلة خاصة بالميت والقبر. تقول إحداهن: "والو تريحي وتقولي الحمد لله، والراحة التامة". وتضيف أخرى: "قطعت لياس، بلي راحت، بصح كي لقيت الناس قايمين بيها ارتحت شويا. وتصرح أخرى أيضا: "خلاص مشات حنتي مدام خلق فيها الت غسل. نقول باش ضرك تتوض". وقد يرمز هذا الطقس إلى التطهير المادي والمعنوي للميت، ويرمز تكفينه بالأبيض إلى الصفاء، وتخليصه من الخطايا قبل ملاقاته ربه.

يعطي طقس **نقل الجنازة** الحاد انطبعا بمقام الميت ومكانته، مما يجعله ممثلن، حيث تقول إحداهن: "قاع حابين يهزوه، قاع حابين يحطوه في القبر، قاع الناس يحكو عليه بحاجة زينة، ويوميا كانو يقرأو عليه القرآن. حسيت بنوع من الراحة او حاجة مليحة". وتقول أخرى: "واعة اللحظات الأخيرة انتاع الوداع. وتقول أخرى: "كي مشا معاها شعب كبير قلت ياسعدھا، هذا الدعاء والصلاة يلحقها انشاء الله، او تفرح بنا". وتقول حالة أخرى كذلك: "جاو الناس الحق، تبارك الله ما دام قايمين بيها كيف الموتى الآخرين. الدعاء ريحني".

يظهر أن لطقس **دفن الميت وقراءة القرآن عليه** وتعليم القبر دور في بعث مشاعر الطمأنينة في نفس الحاد، تقول إحدى المفحوصات: "استغفرت الله، او قلت لو كان عندي فرصة ارجعو. نموروه باه يقرأو عليه القرآن". وتقول أخرى: "كنت لاهية مع العيل وجماعة التسريية، احنا نموروه، باه يتعرف بلي هو لتسهيل الزيارة. وتضيف أخرى أيضا: "أدينا واجبنا على أكمل وجه. لازم نموروه باش يروحو يزوروها دايمًا". ويعمل عند البعض على التأكد من رحيل الميت: "خلاص تيقنت بلي راح الميت. لازم نموره باه يزوروه الرجال". تعمل هذه الزيارات عند البعض على مساعدتهم على التقبل والتفريغ التدريجي.

يعبر طقس توزيع الحنة على إنتهاء فترة الحداد، حيث تقول إحداهن: "يحتو عند القبر او عند الباب الحنة والدهينة، أي واحد يجي يعرف بلي خرج العود(الحنن)(بعد ثلاث أيام) انحس بلي بدا التغيير". وتضيف أخرى: "يقسمو الحنة خاطر الحنة حنينة، زعما خلاص خرج العود، كاين اللي يقلبو الحنة على القبر، بصح الطالب قال بدعة، يقسموها على الناس. احنا التمر والحليب والحسا من اللي بيذا العزا. احنا محبذ عندنا انصدقو الحاجة البيضاء". "لازم نوزعو الحنة ل خاطر تعبر على خروج العود، حسيت بلي درنا الواجب كيما يلزم او راهي فرحانة بنا". "يقسموها بلي قطعنا لياس وامشا الحزن انتاع الميت. احنا نديرو روديات".

يؤدي طقس قراءة القرآن إلى بث الراحة في قلب الحاد، حيث تعبر إحداهن: " انحس بأريحية، او ساهمنا بحاجة تخفف عليه. او ياريت لو كان انزيد معاهم او نختموا القرآن. حلمت بلي كنت مع أفراد الأسرة ومعانا الخال، كي ارجعنا هو ما رجعش معانا". وتضيف أخرى: "يديروها كي يتدفن، وانهار الثالث، وانهار الصدقة، وانهار الربيعين، باش يرجع الرحمة على الميت". وكذلك: "حاجة مليحة ولازم، انا نشوفها حاجة مليحة حسيت بلي كامل وصلها وهي راهي فرحانة بيه. خليت الناس قاعدين وانا ارقدت باش ما انامش بيه، او ما نتخيلهاش". وتضيف أخرى: "شيئ مليح ختم القرآن في الجنابة، شيء رائع. حسيت بالراحة. انا نرقد وانخلي الناس قاعدين". ونعرف أيضا أن جماعة المعزين تتعمد السهر لفسح المجال للحاد بالنوم في طمأنينة.

يتترك طقس الصدقة، انطبعا إيجابيا في نفس الحاد، حيث تقول هذه الحالة: " احنا درناها، حاجة زينة، باش يدعم ويخفف على الميت، حسيت بالارتياح". وتضيف أخرى: "لازم، تخفف على الميت، مرات لوكان بقا ليه شوية على الجنة يدخل ليها بالصدقة. تحسي كاين شوي الراحة". وتضيف أخرى: "درناها شحال من مرة، كلها للميت باش تخفف عليه، حسيت بالراحة". كما يدخل في إطار الصدقة أيضا طقس عشاء الميت، حيث يسهر الأقارب والجيران مع أهل الميت ويطمئنون عليهم، وهذا ما يساعد الحاد على الخلود إلى النوم قبل جماعة التعزية، كما أن تبادل أحلام النوم يساعد الحاد

على تقاسم التجربة، ويساعد الأفراد أحيانا بعضهم بعضا على إيجاد الترميز الملائم للحلم وقد ينتهي الأمر ببعضهم إلى التفرغ الانفعالي.

أما طقس خروج العود فيعمل في سبيل إنهاء الحداد، حيث تقول إحداهن: حسيت بلي بدا يتخفف هذا الجو، الايام الأولى تكون عصبية، وامبعد تخرج الأزمة والمحنة اللي راكي فيها. حسيت الاخرين متعاطفين معانا، ومسانديننا معنويا". وتضيف أخرى: واش باغيا اديري، تلهيت مع صوالح الدار، ومدام القبر يبس القلب بيئس، لا بد الانسان يصبر روجو شويا شويا". وتضيف أخرى: "خلاص تيقنت بلي راحت، هذيك هي الموت". يتمشى هذا الطقس (توزيع الحنة وخروج العود) مع طقس العطلة من الناحية القانونية بالنسبة للعمال والموظفين، فهو اعتراف ضمني بألم الحاد ومعاناته وحاجته إلى الراحة، ولكنه في نفس الوقت دعوة اجتماعية عامة لعدم السماح للأفراد بالتقاعس عن أداءهم واجباتهم ودفعهم إلى الوقوف من جديد بعد التغيير الذي طرأ على هوية الحاد، بدل السقوط والانهار.

نلمس في الأخير موقف موحد لدى الحالات على أن الطقوس الجنائزية لها دور في سياق الحداد النفسي، تقول إحداهن: "عندها دور، كيما نقولو انحسها بلي نقصت شويا. أحسن ملي كنت في عين صالح. خطرات انكون عند عمتي، انديروا dj¹ انحس بلي ما هو من حقي نفرح، وامبعد نندمج معاهم". وتضيف أخرى: "ايه تساعدك ياسر، 15 يوم والناس معانا في الدار، ياكلو معاك ويشربو معاك، او كي يفرغو الناس تبان لي بلاصتها". وكذلك تضيف أخرى: أكيد عندها دور في تخفيف الألم والمعاناة، وبلا الناس ما نقدرود نديرو حتى حاجة.

1. المقصود به: *disque jockey*

خلاصة

هناك حدود لهذه الدراسة يمكن التنبيه لها، فهي لا تسمح بتعميمات خارج إطار الحالات المدروسة، كما أنها لا تزعم أن هناك علاقة ارتباطية موجبة بين المتغيرات أو علاقة سببية، ولكن في نفس الوقت، فهي تنبه إلى أهمية الطقوس الجنائزية وأثرها في تعزيز عامل الجلد لدى الحاد، وتخفف من وطأة الأعراض المرضية التالية للفقْدان. وكما رأينا

من خلال إجابات المبحوثين، فإن انطباعاتهم كانت أغلبها إيجابية بشأن الممارسات الطقوسية عقب وفاة شخص عزيز .

ظهرت الطقوس الجنائزية التالية للحداد في مجملها تتماشى والمشكلات التي يواجهها الحاد أثناء فقدان شخص عزيز، الانشغال بالإعلان ونقل الجنازة وتغسيل وشرء الكفن والتكفين والمشى في الموكب الجنائزي والصلاة وحفر القبر والدفن كلها تعمل في مواجهة أعراض التباطؤ النفسي الحركي الذي يميل نحو الاستقرار في مثل هذه الحالات. الديناميكية الاجتماعية الشائعة عند الموت تفرض على الحاد القيام بجهد مضني، يعمل ضد السياقات الاكتئابية التي تنشط في مثل هذه الظروف.

كما أن الانشغال بتحضير الغذاء والطبخ وتحضير عشاء الميت يهدف إلى كسر حاجز القهم والميل إلى فقدان الشهية، لأن البعض يحث أهل الميت على الأكل (لوكان متاكلش مانكلوش) والذي يعني أن ما أصابكم أصابنا نحن أيضا وهذا تعزيز التضامن والمساندة الاجتماعية التي تشير إلى تقاسم المعاناة والمشاركة الوجدانية للتجربة المؤلمة. في المقابل تساعد مواقف الوحدة والانزواء عند البعض على إرسان الوضعية الاكتئابية التي يمر بها الحاد.

للإشارة، فإن هذه الدراسة تقتصر على الملاحظات الميدانية والتصريحات اللفظية التي أدلى بها أشخاص اختبروا فقداناً ذو قيمة، وهي تبعد نوعاً ما عن تناول الديني الذي يفرض نفسه دائماً في مثل هذه الحالات. حيث تستند الطقوس الجنائزية في مجتمعنا بالدرجة الأولى على المعتقدات الدينية، وهي التي تعطيها بعدها المشترك عبر مختلف المناطق في الوطن، بينما تعمل العوامل الثقافية غير الدينية على إضفاء نوع من الخصوصية على هذه الممارسات الجنائزية من منطقة لأخرى.

قائمة المراجع

- سي موسي، ع. ر. وزقار ر. (2015)، *العنف الإرهابي ضد الطفولة والمراهقة، علامات الصدمة والحداد في الاختبارات الإسقاطية، دم.ج.، الجزائر.*
- نابتي، ع. (2015)، *مقبرة سيدي بوجمعة ونساء عين الصفراء، مجلة إنسانيات عدد 68، ص: 35-48.*

زقار ر. (2017)، *حداد ما بعد الصدمة لدى المراهق، دراسة إسقاطية لضحايا الزلزال، دار الكتاب العربي، الجزائر.*

زقار، ر. (2017)، *المقبرة كفضاء لاستحضار الموت وكفرصة لتجاوز الحداد، الموت في الممارسات الثقافية والدينية، معسكر، الجزائر.*

APA (2013), **DSM5**, New School Library, Washington, DC, L.

Bacqué M.-F. et Hanus M. (2005), **Le deuil**, P.U.F., Paris, 127p.

Begoin J.(2002), La problématique du deuil et le métabolisme de la souffrance psychique, in **Le deuil**, Semailles, Alger, pp.41-63

Bourgeois M.-L. (2003), **Deuil normal Deuil pathologique. Clinique et psychopathologie**, Doin, France, 149p.

De Tychev C., et col.(2012), Resilience, Mentalization, and the Development Tutor, A Psychoanalytic and Projective Approach. In **Rorschachiana**, 33, 49-77.

Duchet C. (2007), Entre la vie et la mort: rapports entre trauma et suicide, in **transformer la violence?**, In Press, Paris, pp.61-72.

Gauthier S., (2012), **Face à la mort**, Solar édition, Paris.

Hanus M. (2002), Le travail du deuil, in **Le deuil**, Semailles, Alger, p.15-40.

Jong-Sun Lee et al.,(2014), Resilience buffers the impact of traumatic events on the development of PTSD symptoms in firefighters, in **journal of affective disorders**, 162, 128-133.

Parkes C. M. (2003), **Le deuil. Etudes du deuil chez l'adulte**, Frison-Roche, Paris, 415p.

Zech E. (2006), **psychologie du deuil. Impact et processus d'adaptation au décès d'un proche**, Mardaga, Belgique, 286p.